الإسلامية . وله أثر فى ضميرها لم يفارقها طوال حياتها ، وربما كان له أثر فى موقفها من تاريخ الإسلام ترتبط به ذيوله على نحو من الأنحاء . ولولا ذلك كله لما استحق من المؤرخ كبير التفات .

بعد النبي

عاشت السيدة عائشة بعد النبى ستاً وأربعين سنة ، وتوفيت وهى فى نحو السبعين من عمرها ، سنة ثمان وخمسين للهجرة

وقد توفى النبي عليه السلام فى بيتها وفى يوم زيارتها ، ودفن بالمكان الذى كان ينام فيه

وقد علم كثير من الناس عند اشتداد المرض به أنه مرض الوفاة ، ولكنه كان قد صحا بعض الصحو قبيل وفاته حتى استأذنه أبو بكر فى الخروج إلى بيته بالسنح ، وتفرق المسلمون متفائلين وهم يرجون الخير ويبعدون عن خواطرهم نذير الخوف . فلما قبض عليه السلام بعد ذلك روعت عائشة أيما روع وتعاظمها الخطب أن تملك صبرها وهو يموت بين سحرها ونحرها ، فنسيت لهول الساعة ما ينبغى لها أن تستقبل به هذا الوداع الذى لا يتكرر ولا تهونه سابقة وداع مثله : إنها أم

المؤمنين التي لبثت السنين بعد السنين تلقنهم ما لقنها النبي من سداد التجمل ووقار الحزن في الملمات ... إذا هي تنسى كل ذلك ساعة فقده وإذا هي امرأة والهة بين النساء تلتدم وتضرب وجهها : وقالت : « ... وجدت رسول الله صلى الله عليه وسلم يثقل في حجري ، فذهبت أنظر في وجهه فإذا بصره قد شخص وهو يقول : « بل الرفيق الأعلى من الجنة » قلت : خيرت فاخترت والذي بعثك بالحق . وقبض بين سحري ونحري ودولتي ولم أظلم أحداً . فمن سفهي وحداثة سني أنه صلى الله عليه وسلم قبض وهو في حجري ؛ ثم وضعت رأسه على وسادة وقمت ألتدم مع النساء وأضرب وجهي »

ولم تشهد دفنه عليه السلام بعد وفاته بيومين ، لأن المسلمين كان قد بلغ من تنافسهم في حبه أن يتولى كل فريق منهم مراسم دفنه على ما تعود في بلده وبين أهله . وكان أهل مكة يسوون قاع القبر وأهل المدينة يقوسونه . فبعث العباس بن عبد المطلب رجلين يدعو أحدهما أبا عبيدة بن الجراح ويدعو الآخر أبا طلحة ، وأولهما يضرح كأهل مكة والآخر يضرح كأهل المدينة . فعاد صاحب أبي طلحة به ولم يعد صاحب أبي عبيدة . فحفر اللحد على طريقة أهل المدينة وتولى القائمون على الجثمان الكريم دفنه بعد انقطاع المودعين عند هزيع من الليل . قالت عائشة وفاطمة رضي الله عنهما : « ما علمنا

بدفنه صلى الله عليه وسلم حتى سمعنا صوت المساحى من جوف الليل »

وما برحت منذ تلك اللحظة تلازم تلك البقعة الخالدة ولا تفارقها إلا للعمرة أو الحج أو لزيارة قريبة ، وقلما كانت تزور .

واتخذت سكنها فى الحجرة المجاورة لقبره وهى لا تحسب أنها قد فارقت منه غير مشهد جثمانه . فقد كانت تزوره زيارة الأحياء . ودفن أبوها إلى جواره بعد سنوات فكانت تزورهما كذلك زيارة الأحياء . فلما دفن معهما عمر جعلت بعدها تنتقب وتلبس ملابس الحجاب وهى تزور أولئك الأصدقاء المتجاورين ، كأنهم بقيد الحياة .

وكانت فى أوائل العقد الثالث على أكبر تقدير عند وفاته عليه السلام فعاشت فى صحبته زهاء عشر سنين وعاشت فى ذكراه زهاء خمسين سنة . وحسبنا من شعور الناس بجلال تلك الذكرى فى نفسها أن أحداً لم يخطر له خاطرة عن السيدة عائشة تجيز التفكير فى حياة زوجية أخرى كأنه خاطر حرمته قداسة تلك الذكرى وهيبة ذلك الوفاء ، فضلا عن الحكم بتحريمه فى سورة الأحزاب على سبيل التشريع .

ولم تكن حياة السيدة عائشة فارغة فى خلال تلك السنين الطوال من لدن فارقها زوجها العظيم وهى تجاوز العشرين

إلى أن فارقت الدنيا وهى تقارب السبعين . لأنها فى حدة نفسها ورفعة مكانها لا تقبل الفراغ . فما هو إلا أن هدأت ثائرة الفتنة بعد وفاة النبي عليه السلام وتوفر المسلمون على تحصيل مراجع الدين حتى كانت هى المرجع الأول فيما حفظ عندها من آى القرآن وما حفظته من السنن والأحاديث ، وحتى كان بيتها مثابة الزوار من أبنائها وبناتها ، يدعونها يا أمة ! ومنهم من هى فى سن بناته الصغريات ، ويا له من دعاء محبب إلى الأسماع .

وكانت إذا فرغت من تلقين الأحاديث وجواب السائلين تأوى إلى الصلاة والتسبيح فى جوار الضريح . أو تعمل فى مهنة البيت ذلك العمل الذى كان النبى عليه السلام يسرها بمساعدتها فيه .

ومن أهم الأشياء التى ينبغى أن تلاحظ فى حياة السيدة عائشة بعد النبى عليه السلام أنها قضت خلافة أبى بكر وعمر وهى لا تشعر بأن مكانها فى عهد النبى قد تغير أو بأن أمراً من أمور السياسة العامة يدعوها إلى التعرض له راضية أو ساخطة . حتى كانت خلافة عثمان فتغيرت هذه الحال ، وكان لتغيرها دلالة كبيرة وأثر كبير .

فى عهد أبى بكر كانت أمور السياسة العامة تجرى على أحكام الدين وتركن منه ومن أصحابه إلى سند ركين ،

obeikandl.com

وكان الخليفة أباها وهو أول من يدعوها بأم المؤمنين .

وفي عهد عمر كانت أمور السياسة العامة تضطرب أو تسكن ولكنها في كلتا الحالتين لا تنشعب ولا تؤذن بانصداع ، وكان عمر أهيب خليفة عرفه الإسلام وأحب خليفة إلى عائشة رضى الله عنها . سرت صداقة الأبوين أبي بكر وعمر إلى بنيهما فكانت عائشة وحفصة أصدق صديقتين تتفقان وتتكاشفان كلما وقع الخصام في بيت النبي عليه السلام وحفظت له أجمل الشكر لموقفه من حديث الإفك حين شاوره النبي فقال له : إن الله هو الذي زوجكها وإنه سبحانه وتعالى لم يدلس بها عليك . وتم هذا الشكر حين ولي الخلافة فرعى لها المكانة الأولى بين المسلمين ، وخص بيت النبي بالحصة العليا من الحفاوة والعطاء .

فمضى العهدان — عهد أبي بكر وعمر — وليس في الحياة الخاصة ولا في الحياة العامة ما يشعرها بتغيير أو ينزع بها إلى نوازع السياسة ، وما تعارض منها أو جنح إلى التحزيب والتأليب .

ثم تغيرت الأمور في عهد عثمان

ولولا هذا التغيير لما عرف للسيدة عائشة نصيب من السياسة العامة بعد موت النبي ، وهو الموقف الذي تحولت بها الأحوال إليه بعد اجتناب السياسة العامة قرابة عشرين سنة ، على غير سابقة له في سيرتها الأولى .

فى السياسة العامة

قلنا فى الفصل السابق إن السيدة عائشة لم تقض حياتها فارغة خلال السنين الطوال التى انقضت بعد وفاة النبى عليه السلام . « لأنها فى حدة نفسها ورفعة مكانها لا تقبل الفراغ »

فأما حدة نفسها فمن السهل بعد إلمامة يسيرة بمزاجها وتكوينها الذى يشبه تكوين أبيها أن نعرف كيف يتعذر الفراغ على هذه السليقة الحية التى نشط بها المزاج العصبى ولم يقعد بها الترهل والإعياء .

وأما رفعة مكانها فهى أحرى أن تشغلها عن الفراغ مريدة له أو غير مريدة ، لأنها تعودت أن يؤبه لها طوال حياتها ، ولم تتعود قط أن تكون غفلا فى بيئتها ، وهى أرفع بيئة بين قومها .

نشأت عزيزة فى آلها وذويها ، عزيزة فى بيت أبيها ، عزيزة فى أعز البيوت العربية بعد زواجها . فمن الحق لها ولنشأتها ، ومن الواجب لها ولنشأتها أن يؤبه لها طوال حياتها ، وألا يكون فراغها بمثابة الإغضاء عنها .

هذه حقيقة لو التفت لها ولاة الأمر كما ينبغى فى حينها

لسلمت السياسة العامة فى ذلك الحين من جرائر الخطأ الذى وقعت فيه .

ولا بدع فى تقرير تلك الحقيقة ولا فى تعظيم خطرها والتنبيه إلى تبعاتها .

فما من دولة قط إلا قد اتخذت لها أصولا مرعية فى سياسة أقطابها ومراسم كبرائها وكبيراتها توافق ما لهم أو لهن من الشأن فى الدولة ، وما يكون لميولهم أو ميولهن من الآثار فى السياسة العامة ، أو السياسة العليا على التخصيص ، وهى أصول لم تُغفل مرة إلا كان لها أثر غير منظور ولا محسوب له حساب فى توجيه الأمور .

وقد كانت « أصول » السياسة العليا فى معاملة السيدة عائشة ، رعاية لمكانتها وسليقتها ، أن تظل بالمكان الذى يستفاد فيه من عملها وعلمها وأن تعرف لها مهمتها الكبرى فى تقرير السنة النبوية ، أو تبويب الدستور الإسلامى كما يؤخذ من أحاديث النبى ومأثوراته وعاداته ، فى معيشته وعباداته ، وكان هذا وحده عملا خليقاً أن يشغل أيام السيدة عائشة على أحسن الوجوه الصالحة لها وللمسلمين وللدولة الإسلامية

كان هذا واجباً لها وجوب الحق ووجوب المصلحة ووجوب السياسة .

وكان هذا الواجب « أصلا مرعياً » من أصول السياسة

العليا أيام أبى بكر وعمر سواء قصدا إليه أو ذهبا فيه مذهب البداهة ومقتضيات الأمور . . .

ولكنه خولف أو عدل عنه بعد الخليفتين الأولين . خولف أو عدل عنه لأسباب يرجع بعضها إلى حكومة عثمان ، وبعضها إلى طوارئ الزمن ، وبعضها إلى السيدة عائشة على اختيار منها أو على ما تحولت بها إليه دوافع الأحوال .

* * *

جاء الخطأ الأول فى هذه السياسة من القائمين بالأمر فى حكومة عثمان ، وكان خطأ عجيباً حقاً لأنه لا يفهم على وجه من وجوه المصلحة ولا تدعو إليه ضرورة من ضرورات الدولة ، ونعنى به نقص العطاء الذى كان مقدوراً للسيدة عائشة فى عهد الفاروق ، أعدل من لاحظ العدل فى تقسيم الأعطية على حسب المراتب والحقوق .

إن نقص عطاء السيدة عائشة كان يكون سائغاً عندها وعند المسلمين والمسلمات إذا دعت إليه حاجة فى خزانة الدولة ، ولكنه لا يسوغ ولا تستريح إليه نفس والأموال تتدفق على خزانة الدولة بالألوف التى يحار فيها الإحصاء ، وغنائم أفريقية وحدها تبلغ مليونين ونصف مليون من الدنانير ، فيعطى خمسها لبنت الخليفة وزوجها مروان بن الحكم ، وغير ذلك من القطائع والأعطية التى يخص بها القريبات والقريبون ولا يضبط لها حساب .

إن الغضب من هذا لن يكون غضب الحريص على مال .

ولم تكن السيدة عائشة خاصة ممن يحرص على مال أو يبذله فى ترف أو يخزنه للمكاثرة والادخار . فما سمع عنها قط أنها أنفقت المال فى غير الكفاف من الرزق والإحسان إلى المعوزين، وما تركت بعدها بقية تدل على حرص ولا ادخار

ولقد كانت تنكر التزيد من الثراء على الصحابة الأجلاء وإن كان من التجارة والحسب الموروث. فكان عبد الرحمن ابن عوف — وهو مثل من أمثلة عدة — وافر الثراء على عهد النبى عظيم السخاء فى خدمة الدين . ودخلت له عير إلى المدينة فيهـا سبعمائة بعير تحمل البر والدقيق والطعام ، فارتجت لها المدينة وسمعت رجتها فى بيت عائشة ، فما نجا به من لومها إلا أنه ذهب إليها يشهدها أن العير بأحمالها وأحلاسها وأقتابها فى سبيل الله .

فغضب السيدة عائشة من نقص العطاء لم يكن غضب الحريص على مال والطامع فى ادخار ، ولكنه كان غضباً عادلا من غضاضة لا حاجة إليها ولا حكمة فيها ، ولا تستريح إليها النفس بتعليل مقبول

وشاع النقد والسخط من ولاة عثمان وحواشيه ، وكثر القيل والقال فى مخالفتهم للدين وتوسعهم فى اقتناء الدور والحطام

ومثل من الأمثلة العدة فى هذا الباب تولية الوليد بن عقبة

أخى عثمان لأمه خلفاً لسعد بن أبى وقاص على الكوفة وهو من أعلام الصحابة المحبوبين بين جلة المسلمين

وكان الوليد متهماً بالخمر ، وشاع فى المدينة أنه أم الناس يوماً فى صلاة الصبح وهو سكران . فلما فرغ التفت وقال : هل أزيدكم ؟ فإنى أجد فى نفسى نشاطاً ؟

ولم يكن عجيباً أن يلجأ الشاكون منه إلى بيت عائشة فيمن لجأوا إليه من كبار الصحابة وهم غير قليلين وإنما لجأوا إليها بعد أن قدموا على الخليفة فتبرمت بهم حاشيته وبرأوا الوليد عنده مما اتهمه به أهل مصره . فقال لهم : أكلما غضب رجل منكم على أميره رماه بالباطل ؟ لئن أصبحت لكم لأنكلن بكم . فاستجاروا ببيت النبى وعائشة فيه

ثم أصبح عثمان « فسمع من البيت صوتاً وكلاماً فيه بعض الغلظة فقال مغضباً : أما يجد مراق أهل العراق وفساقهم ملجأ إلا بيت عائشة ؟ فسمعته ، فقيل إنها رفعت نعل رسول الله صلى الله عليه وسلم وقالت : تركت سنة رسول الله صاحب هذه النعل ؟ . . . وتسامع الناس فجاؤوا حتى ملأوا المسجد . فمن قائل : أحسنت ، ومن قائل : ما للنساء وهذا ؟ حتى تحاصبوا وتضاربوا بالنعال ، ودخل رهط من أصحاب رسول الله على عثمان وناشدوه الله أن يعزل أخاه »

لم يكن من شأن هذه السياسة من حاشية عثمان أن تكف

السيدة عائشة عن نقد الولاة وقبول الشكاة . بل قربت هذه السياسة بينها وبين اللاجئين إليها . فلما شكا الناس من والى عثمان — فى مصر — عبد الله بن أبى سرح — واتهموه بقتل رجل ممن شكوه إلى الخليفة فزعت وفود المصريين إلى بيت عائشة فأرسلت إلى الخليفة تندد بواليه وتقول له : تقدم إليك أصحاب رسول الله وسألوك عزل هذا الرجل فأبيت ، فهذا قد قتل منهم رجلا فأنصفهم من عاملك

وجعل وفود المصريين يلقون المصلين بالمسجد فى أوقات الصلاة ويبسطون لهم ظلاماتهم وشكاياتهم إلى أم المؤمنين وكبار الصحابة ، فألحف كبار الصحابة على الخليفة فى إنصافهم ، وأثمرت غلطات الحاشية ثمرتها فى توجيه الشاكين إلى طلب المزيد من حماية أم المؤمنين ، فاختاروا محمد بن أبى بكر — أخاها — ليخلف عبد الله بن أبى سرح حين خيرهم الخليفة فيمن يؤثرونه للولاية بعده . وقعت الطامة بعد ذلك بتدبير لا تعلم جليته حتى الآن ، وإنما الرأى الراجح أنه من تدبير مروان بن الحكم على غير علم من عثمان ونصحائه المخلصين

ذلك أن الوفود القافلة إلى أمصارها عثرت فى طريقها بغلام يحمل كتاباً فى أنبوبة من رصاص وفيه أنه « إذا أتاك

محمد بن أبى بكر ومن معه فاحتل فى قتلهم وأبطل كتابه وقر على عملك حتى يأتيك رأيى فى ذلك إن شاء الله » .

فأعقب هذا الكتاب ما لا بد أن يعقبه من الأثر فى نفوس الصحابة وفى نفس السيدة عائشة وفى نفوس الوفود المتجمعة من الأمصار ، وقذف بالفتنة القائمة يومئذ فى طريق غير مأمون .

وظاهرٌ من هذا العرض السريع أن اختلال الأحوال فى عهد عثمان هو الذى تحول بالسيدة عائشة عن موقفها الأول من حكومة أبى بكر وعمر إلى موقف الاشتراك فى السياسة العامة والمجاهرة بالنقد الشديد لحكومة عثمان وولاة عثمان وحاشية عثمان .

بل هو الذى جعل لها مهمة تطلبها وتسعى إليها ، وهى مهمة الوساطة بين الشعب والخليفة أو مهمة الحماية لمن يجهرون بالشكوى ويخافون عقباها .

فلولا الحمق الذى اشتهرت به حاشية عثمان لما تركت السيدة عائشة فى مكانتها العليا من الأمة الإسلامية وهى تشعر أنهم قد أنزلوها من الرعاية والمبالاة دون منازل بناتهم وزوجاتهم وأصحاب القرابة والزلفى لديهم .

ثم تمادى الأمر فلم يقبلوا من المسلمين أن يلوذوا ببيتها

ويفزعوا إلى جوارها ، ولو تناولوا الأمر بالرفق لاستفادوا من لياذهم بذلك البيت وفزعهم إلى ذلك الجوار

وكانت الطامة الكبرى أن تأتمر الحاشية الحمقاء بحياة أخيها وتنفذ إلى مصر من يأمر واليها بقتله وهو قادم من قبل الخليفة لولاية الحكم فيها

ومن المحقق عندنا أن الخليفة نفسه براء من هذه الدسيسة التى يتورع عنها مثله فى بره وتقواه . فإن الرجل الذى تورع عن إهراق قطرة دم فى سبيل الدفاع عن حياته والخطر محدق به من جميع جهاته لن يأمر بسفك دم ابن صديقه وزميله ، ولا ذنب له إلا أن الشاكين ندبوه للولاية حين سألهم عمن يختارونه فأجابهم لما ندبوه إليه .

ولكن ما الذى أصاب الجانى المدبر للدسيسة ؟ ولِمَ نجا من العقوبة ؟ ولِمَ لم يكشف للملأ لولا أنه من رجال الحاشية وإن رجال الحاشية هم الذين ستروه وأنقذوه ؟ وماذا لو أن الغلام الذى كان يحمل الأمر بالقتل وصل إلى مصر ولم يعترضه الشاكون فى الطريق ؟ ألم يكن القتل نافذاً فى محمد بن أبى بكر كأن الكتاب قد صدر من الخليفة بغير خلاف ؟

فهذه الحاشية الحمقاء قد بدأت بالغض من مكانة السيدة عائشة لغير ضرورة محتومة ولا حكمة مفهومة ، وانتهت بالتآمر على قتل أخيها لغير ذنب جناه ، وسلكت فى خلال ذلك

مسلكاً تأباه السيدة عائشة من الحاكمين وغير الحاكمين ، وهو مسلك الإسراف والتهالك على الحطام .

فغير عجيب أن يكون للسيدة عائشة موقف عداء من تلك الحاشية وأن تنادى على رأس المنادين بتبديل حكمها وتأليب الناس عليها ، وأن تضيق ذرعاً بعثمان لأنه يمضى حيث مضت تلك الحاشية فى جنفها وغلوائها .

قيل إنها تربصت به حتى أقبل يخطب الناس فدلت قميص النبى ونادت : « يامعشر المسلمين ! هذا جلباب رسول الله لم يبل وقد أبلى عثمان سنته » .

ولم تذكر الحاشية الحمقاء مكانة السيدة عائشة وأمان جوارها وما يرجى من الخير فى شفاعتها إلا بعد فوات كل فرصة وضياع كل أمل واستعصاء كل تدبير .

فلما حوصر عثمان وحيل بينه وبين الزاد والماء ذهبت أم حبيبة إلى داره — وهى زميلة للسيدة عائشة من أمهات المؤمنين — فاعترض الثوار بغلتها وكانت معها إداوة ماء تخفيها . قالوا : ما جاء بك ؟ قالت : إن وصايا بنى أمية عند هذا الرجل ، فأحببت أن أسأله عنها لئلا تهلك أموال الأيتام والأرامل : وكانت أم حبيبة أموية من آل أبى سفيان ، فاجترأ الثوار عليها وقالوا : كاذبة ؟ وقطعوا حبل البغلة بالسيف ، فنفرت وكادت تسقط عنها ، فتلقاها كرام الناس فأخذوها

وذهبوا بها إلى بيتها .

وكانت السيدة عائشة قد كرهت المقام بالمدينة وهى على هذه الحال من الفتنة الطاغية ، فتجهزت للحج واستصحبت أخاها محمداً فأبى وتخلف بالمدينة .

عند ذلك لجأ مروان بن الحكم – وهو رأس البلاء – إلى جوار السيدة عائشة التى كان يغرى عثمان بها لاحتماء الناس ببيتها ، فقال لها : يا أم المؤمنين ! لو أقمت كان أجدر أن يراقبوا هذا الرجل . . . فقالت : أتريد أن يصنعوا بى كما صنعوا بأم حبيبة ثم لا أجد من يمنعنى ؟ لا والله ولا أعبر ولا أدرى إلى ما يسلم أمر هؤلاء .

وفى رواية أخرى أن مروان هذا تذكر الجود بالمال فى ذلك المأزق الميئوس منه فذهب إلى السيدة عائشة يستبقيها لتصلح الأمر فقالت : قد فرغت من جهازى وأنا خارجة للحج . . . قال عندئذ : فيدفع لك بكل درهم أنفقته درهمين ! فلم تملك عائشة نفسها على ما جاء فى هذه الرواية أن تقول : « لعلك ترى أننى فى شك من صاحبك ؟ أما والله لوددت أنى أطيق حمله فأطرحه فى البحر ! » .

وليس أكثر ولا أغرب من الأحاديث التى نسبت إلى عائشة فى خلال هذه الفتنة قبل خروجها من المدينة وبعد خروجها منها . وأشد هذه الأحاديث وأقساها أن بعضهم

سمعها تقول : « اقتلوا نعثلا فقد كفر » وأنها كانت تسأل من تلقاه أن يخذل الناس عن عثمان وشيعة عثمان .

فأما الصحيح من هذا كله فهو أنها كانت تنقم من حكومة عثمان وتتمنى لها الزوال .

ويجوز الشك بعد ذلك فى كثير من نصوص الأحاديث التى نسبت إليها بصدد هذه الفتنة . لأن بنى أمية مثلوا بأخيها محمد بن أبى بكر عند دخولهم مصر أبشع تمثيل . فقتلوه ظمآن ووضعوه فى جوف حمار ميت ثم شووه . وهذا بعد أن جروه من رجله فى أسواق مصر وأشهدوا على مثلته السفلة والصبيان . ثم أرسلوا قميصه الذى قتل فيه وهو بدمه إلى المدينة . فلبسته نائلة زوجة عثمان ورقصت به ، وشوت أخت معاوية ابن حديج خروفاً وأهدته إلى السيدة عائشة فى ذلك العيد — وهى توصى الرسول أن يقول لها : هكذا كان شى أخيك ! فما أكلت السيدة عائشة بعدها شوياً قط وأقسمت لا تأكله حتى تلقى الله .

فلما تسامع الناس بأنباء هذه المثلة الشنعاء غضبوا للسيدة عائشة أن يشمت بها ولاة الدولة الجديدة هذه الشماتة وخاف الأمويون من جرائرهم وندم عقلاؤهم على ما كان من سفهائهم ، واحتاجوا إلى المبالغة فى تشويه نصيب عائشة من فتنة عثمان ، فأضافوا بألسنتهم وألسنة أتباعهم وصنائعهم أقاويل وأباطيل

تمتزج بما نسب إلى السيدة عائشة ، فلا يعرف منها الخالص والمشوب ، ولا يسهل النفاذ من بينها إلى موقع المبالغة والتلفيق

وخليق بنا أن نزداد حذراً من هذه المبالغات على قدر أصحاب المصلحة فى قبولها . وقد اتفق على تكبير نصيب عائشة من التحريض على عثمان مصدران متناقضان ، وهما مصدر أصحاب معاوية ومصدر الشيعة أصحاب على : يريد الأولون ما قدمناه من تخفيف وزرهم فى المثلة بأخيها والحيف عليها ، ويريد الآخرون أن يبطلوا موقفها من مطالبة على بدم عثمان ، وأن يثبتوا براءة على من دم الخليفة القتيل ومشاركة عائشة فى هجمة قاتليه . فضلا عن مصلحة القاتلين أنفسهم فى التعلل بهذا السند الذى يعفيهم من لوم كثير .

* * *

كذلك بدأت السيدة عائشة مشاركتها الأولى فى السياسة العامة وهى إلى الاضطرار أقرب منها إلى الاختيار .

أما مشاركتها الثانية فقد كان اختيارها فيها أكثر من اضطرارها ، فإنها تلقت خلافة على من مبدئها بالسخط والمقاومة ، وأذنت لبعض الطامحين إلى الخلافة أن يتوسلوا بجاهها ويشركوها معهم فى خصوماتهم ، وكان أكرم لهم ولها لو أنهم جنبوها هذه الخصومة وأنزلوها بحيث يعتصم بها الفريقان ويستوى فى جيرتها العسكران ، فتركوا لها مندوحة

للمراجعة يوم دعاها الدعاة بعد تفاقم الفتنة إلى السعى بينهم بالتوفيق .

وأصوب ما قيل فى هذا المعنى مقال ذلك الفتى السعدى الذى تصدى للزبير وطلحة فقال لهما : أما أنت يا زبير فحوارى رسول الله ، وأما أنت يا طلحة فوقيت رسول الله بيدك ، وأرى أم المؤمنين معكما فهل جئتما بنسائكما .

نعم لقد أصاب ذلك الفتى من بنى سعد حين أقام الحجة عليهما بهذا السؤال الذى يغنى عن كل جواب ؛ فما من أحد يلومهما أن يوافقا السيدة عائشة فى الرأى أو توافقهما فيه ، وإنما الملام الذى لا محيص عنه أن يتجاوزا النداء برأيها إلى الخروج بها فى حومة قتال ، وهما لم يخرجا إليها بالمحارم والأزواج .

كانت فى طريقها إلى مكة يوم لقيت ابن عباس موفداً من قبل عثمان ليتلو على الحجاج كتابه ويطلب النصفة بينهم وبين الثائرين عليه ، فاقترحت عليه أن يخذل الناس عن عثمان وأن يشككهم فيه ، ورشحت للخلافة طلحة بن عبيد الله لأنه « اتخذ على بيوت الأموال والخزائن مفاتيح . فإن يل الخلافة يسر بسيرة ابن عمه أبى بكر رضى الله عنه »

قال ابن عباس : يا أمه ! لو حدث — أى اعتزال عثمان — ما فزع الناس إلا إلى صاحبنا . . . قالت : إيهاً عنك . لست أريد مكابرتك ولا مجادلتك .

وألفت نفسها فى مكة بين العثمانية والأموية يوم نزلت بها قبيل مقتل عثمان : فعن لها أن ترجع إلى المدينة لتدرك الأمر قبل فواته ، ولكنها سمعت فى الطريق ببيعة على فقالت فيما رواه عبيد بن أبى سلمة وهو من خؤولتها : ليت هذه انطبقت على هذه إن تم الأمر لصاحبك . مشيرة إلى السماء والأرض ، ثم صاحت بركبها : ردونى ! ردونى ! وجعلت تتوعد فى الطريق : أن تطالب بدم عثمان . . فقال لها عبيد ابن أبى سلمة : ولم ؟ والله إن أول من أمال حرفه لأنت . ! قالت : « إنهم استتابوه ثم قتلوه . وقد قلت وقالوا . وقولى الأخير خير من قولى الأول » .

وما لبث فى مكة قليلا حتى تجمع فيها كل ناقم على علىّ بن أبى طالب من أعدائه ومنافسيه ، فقضت أيامها بمكة بين العثمانية والأموية والولاة الذين أحسوا بزوال الدولة والثروة الذين أوجسوا من حساب الخليفة الجديد ، ولحق بهم طلحة والزبير وكلاهما طامح إلى الخلافة يائس من الأنصار فى المدينة . فاتفقوا جميعاً على كلمة واحدة لا اتفاق بينهم فيما عداها . وهى المطالبة بدم عثمان ، لأن المطالبة به تغنيهم عن القدح فى الخليفة الجديد ، وليس الاتفاق على القدح فيه بمستطاع .

كذلك لذلك ارتفعت الصيحة بدم عثمان .

وفى هذه البيئة غلبت على السيدة عائشة نية الخروج

إلى البصرة بتلك الدعوة التى اتفقوا عليها ، وأكبر الظن أنها كانت وشيكة أن تحجم عن الخروج إليها لولا غلبة البيئة واجتماع الأصوات من حولها على نداء واحد . فإنها ما عتمت فى الطريق أن صدمت أول صدمة حتى همت بالرجوع ثم أصرت عليه لولا احتيالهم فى إقناعها بمختلف الحيل .

عبروا بماء الحوأب فنبحتهم كلابه ، وسألوا أى ماء هذا ؟ فقال الدليل : هذا ماء الحوأب . فصرخت بأعلى صوتها قائلة : إنا لله وإنا إليه راجعون . إنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول وعنده نساؤه : ليت شعرى أيتكن تنبحها كلاب الحوأب . ثم ضربت عضد بعيرها فأناخته وهى تقول : أنا والله صاحبة كلاب الحوأب طروقاً . ردونى . ردونى . ردونى . وأقامت يوم وليلة لا تريم مكانها ، حتى جاءوا لها بخمسين رجلا من الأعراب رشوهم فشهدوا أنهم جازوا الماء ، وقالوا لها : مهلا يرحمك الله فقد جزناه . ثم صاح عبد الله بن الزبير : النجاء . النجاء . فقد أدرككم على بن أبى طالب . فأذنت لهم فى المسير بعد امتناع شديد .

* * *

ونعتقد أن وقفتها عند ماء الحوأب لم تكن آخرة التردد من جانبها فى أمر القتال . فإننا فى الواقع لم نقرأ بين أخبار وقعة الجمل المتشبعة خبراً واحداً ينم على عزمة قتال مبيتة لغرض

مرسوم . ويؤخذ من كلامها لأبى الأسود الدؤلى حين أشخصه إليها عامل علىّ بالبصرة ، أنها كانت تستبعد خروج أحد من المسلمين لقتالها . فقد سألته : أفتظن يا أبا الأسود أن أحداً يقدم على قتالى ؟ وكان أبو الأسود رجلا صعب المراس فى نصرة علىّ فأجابها . والله لتقاتلن قتالا أهونه الشديد وكان مما قاله لها قبل ذلك : ليس على النساء قتال ولا لهن الطلب بالدماء ، وإن علياً لأولى بعثمان منك وأمسُّ رحماً فإنهما أبناء عبد مناف .

ولم تزل بالبصرة على هذا التردد كلما اشتبك أتباعها وأتباع عثمان بن حنيف والى على عليها . فتحاجزوا عن الحرب غير مرة فى المربد وفى دار الرزق ، ونادى أصحاب عائشة بالكف عن القتال بعد أن تورط فيه الفريقان بدار الرزق نهاراً كاملا من الصباح إلى الغروب كثر فيه القتلى والجرحى من الجيشين .

ثم أنفذ على بن أبى طالب رسوله القعقاع بن عمر إلى طلحة والزبير وعائشة فبدأ بعائشة وسألها : أى أمه ! ما أشخصك وما أقدمك هذه البلدة ؟ قالت : أى بنى . الإصلاح بين الناس . قال : فابعثى إلى طلحة والزبير حتى تسمعى كلامى وكلامهما . فبعثت إليهما . فجاءا . فقال لهما : إنى سألت أم المؤمنين ما أقدمها فقالت الإصلاح بين الناس . فما تقولان أنتما ؟ أمتابعان أم مخالفان ؟ قالا : متابعان ! قال . فأخبرانى

ما وجه هذا الإصلاح ؟ فوالله لئن عرفناه لنصلحن ؛ ولئن أنكرناه لا يصلح . فذكرا قتلة عثمان وحكم القرآن . قال : لقد قتل بالبصرة ستمائة رجل فغضب لهم ستة آلاف واعتزلوكم وخرجوا من بين أظهركم ، وطلبتم حرقوص بن زهير فمنعه ستة آلاف . فإن تركتموهم كنتم تاركين لما تقولون ، وإن قاتلتموهم والذين اعتزلوكم فأديلوا عليكم فالذى حذرتم أعظم مما تراكم تكرهون ، وإن أنتم منعتم مضر وربيعة من هذه البلاد اجتمعوا على حربكم وخذلانكم نصرة لهؤلاء . . . فسألته عائشة : فماذا تقول أنت ؟ قال : إن هذا الأمر دواؤه التسكين... فإن أنتم بايعتمونا فعلامة خير وتباشير رحمة ودرك بثأر ، وإن أنتم أبيتم إلا مكابرة هذا الأمر واعتسافه كانت علامة شر وذهاب هذا المآل . فآثروا العافية ترزقوها وكونوا مفاتيح الخير كما كنتم ولا تعرضونا للبلاء فتعرضوا له فيصرعنا وإياكم .

قالوا : قد أصبت وأحسنت ، فارجع . فإن قدم على وهو على مثل رأيك صلح الأمر . ثم أقر على وساطة رسوله وأشرف القوم على الصلح لولا أن حبط هذا المسعى بسفاهة السفهاء من العسكرين فترامى هؤلاء وهؤلاء وجمحت الفتنة جماحها الذى خرجت به من أعنة الرؤساء .

ولم ييأس الفريقان بعد هذا من وساطة الصلح ، ولم يكن

التردد من شأن عائشة وحدها ، بل كان أنصارها جميعاً يترددون ولا يستقرون على صنيع . وقد قال لها الزبير يوماً : ما كنت فى موطن منذ عقلت إلا وأنا أعرف فيه أمرى غير موطنى هذا . قالت : ما تريد أن تصنع ؟ قال : أريد أن أدعهم وأذهب .

وربما تقابل الخصمان وجهاً لوجه فتناصحا على مسمع من العسكرين تناصح الإخوان . . . نادى على خصمه الزبير يوماً : يا زبير ارجع . فقال : وكيف أرجع الآن وقد التقت حلقتا البطان[1] ؟ وهذا والله العار . . . قال على : يا زبير ارجع بالعار قبل أن تجمع العار والنار .

فرجع . وأهاب به إبنه عبد الله يستثيره : أحسست رايات ابن أبى طالب وعلمت أنها تحملها فتية أنجاد ؟ قال : قد حلفت ألا أقاتله . قال : كفر عن يمينك وقاتله .

وبينما هم فى تقديم وتأخير ومشاورة ومثاورة أقبل لعب ابن سور إلى عائشة فقال لها : أدركى . فقد أبى القوم إلا القتال . لعل الله أن يصلح بك . فركبت وألبسوا هودجها الأدراع . وتعالت الضجة من هنا وهناك فسألت : ما هذا ؟ قالوا : ضجة العسكر . قالت : بخير أو بشر ؟ قالوا : بشر . إذ

---

(١) البطان حزام الدابة والتقاء الحلقتين كناية عن التهيؤ للركوب والمسير

كان القتال قد نشب بين الفريقين من تصارع الغوغاء وتدافع الغلاة وإفلات الأعنة من الرؤساء .

ويبدو لنا من جملة الوقائع أن حملة الجمل كانت حملة اندفاع ولم تكن حملة تدبير وتقدير ، ولا كان أحد من دعاتها يملك زمامها ويتجه به إلى مصير معروف .

وإلا فما يكون ذلك المصير ، إن أصحابها لم يريدوا بها أن يفسدوا الأمر على على بن أبى طالب ليصلحوه لمعاوية ، فليس منهم زعيم من حزبه والعاملين لدولته .

ولم يتفقوا على ولاية واحد منهم بعد هزيمة على إن تمت هذه الهزيمة ، وليست هى بالمركب الذلول .

إنما هى حملة تهويل وسعى إلى المقاسمة فى الأمر على وجه من الوجوه التى أشاروا إليها قبل مفارقتهم المدينة : فيتولى بعضهم العراق وبعضهم اليمن ، ويصبح الأمر شركة أو « شورى » بينهم وبين الخليفة ، على قولهم الذى عبروا به عن طلب الولاية فى بعض الأحاديث بينهم وبينه .

وفهم الحملة كلها على هذا الوجه أقرب ما نراه لفهم السيدة عائشة فى موقفها من القتال ومن السياسة العامة على الإجمال .

نعم إن فهم مأساة الجمل هى وسيلتنا إلى فهم السيدة عائشة ، لأننا نعرف مصادرها ومواردها ومبلغ الأخطار المنظورة

من ورائها عند الهجوم عليها فنعرف النية التى جنحت بالسيدة عائشة إلى الدخول فيها ، وهى كل ما يعنينا من تاريخ تلك المأساة فى هذا السياق .

والذى يبدو لنا من تلك الحوادث التى لخصناها فيما تقدم أن مأساة الجمل لم تكن عند السيدة عائشة إلا دفعة من دفعات الحدة التى طبعت عليها ، قدحتها المفاجأة وأوقدتها كثرة المغريات بعداوة على فى بيئة لم يرتفع فيها صوت لغير أعدائه ، ومهدت لها حوادث الماضى تمهيدها الذى رسم لها الوجهة واندفع بها عن هذه الخطة دون غيرها .

فمن تمهيد الحوادث الماضية أن طلحة والزبير وعلياً لم يكونوا غرباء عن السيدة عائشة ولم تكن هى غريبة عنهم بميولها وسوابق شعورها .

فطلحة من بنى عمومتها ومن بنى تيم قبيلتها وقبيلة الخليفة الأول أبيها .

والزبير زوج أختها أسماء ، وابنه عبد الله ابنها الذى اختارته لكنيتها فى بعض الروايات ، فكانت تكنى من أجله بأم عبد الله .

وعلى أقرب الناس إلى بيت النبي وزوج ابنته وأبو حفيديه وصاحب الرأى الذى لا ينسى فى حديث الإفك وهو نصيحته للنبي بتطليقها .

ومن الحق أن تقول إن الشعور الذى تكنه السيدة عائشة لعلى من جراء هذه النصيحة شعور طبيعى لا غرابة فيه .

فلا ريب أن علياً رضى الله عنه قد أخطأه التوفيق فى تلك النصيحة . إذ لم يكن من الإنصاف أن تطلق عائشة لشبهة لغط بها المنافقون وطلاب الوقيعة بين النبى وأصحابه . ولن يفهم الناس من تطليقها إلا أن النبى قد أدانها وأنف من معاشرتها ، ولن يصيبها ذلك وحدها بل يلصق بها وبأبيها وآلها وصمة لا تمحى فى زمانها ولا بعد زمانها ، وقد يتعدى الأمر عائشة وآلها إلى الإسلام كله فيتخذ المنافقون من صدق حديثهم الذى أفكوا به مطعناً فى صدق الدين ونبيه ، وهذا كله إلى أن الإدانة بمثل تلك الشبهة لا توافق التحرز الشديد الذى قضى به الدين فى هذه القضايا ولو مست من هن دون عائشة فى القدر والثقة . فما نحسب علياً قد سها عن هذا كله وهو ينصح إلى النبى بتلك النصيحة إلا لفرط الغيرة على تنزيه سمعة النبى وبيته ، واستكباره فى هذا الصدد أن يقال ما يقال ولو لم يكن ثم برهان على ما قيل .

وما من أحد يجهل الشعور الذى تقابل به النساء نصيحة كتلك النصيحة . فأقل ما يقال إنه شعور لا غرابة فيه .

ثم ها هى ذى مسألة الخلافة والترشيح لها من بين عظماء الصحابة الذين بقوا على قيد الحياة بعد موت أبى بكر وعمر وعثمان ،

ومن هؤلاء الصحابة على وطلحة والزبير . وكلهم قد ندبوا للاجتماع فى بيت عائشة لاختيار واحد منهم للخلافة ، وقال لهم عمر يومئذ : « إنى نظرت فوجدتكم رؤساء الناس وقادتهم ولا يكون هذا الأمر إلا فيكم ، وقد قبض رسول الله وهو عنكم راض ، وإنى لا أخاف الناس عليكم إن استقمتم ، ولكن ما أخاف عليكم اختلافكم فيما بينكم فيختلف الناس . فانهضوا إلى حجرة عائشة فتشاوروا واختاروا رجلا منكم » .

وكان جائزاً أن يقع الاختيار فى بيت عائشة على طلحة أو الزبير لأنهما وكيلان من وكلاء الشورى .

ثم انقضت خلافة عثمان وتجددت المسألة كرة أخرى على النحو الذى شهدته عائشة قديماً فى بيتها . فمع من يكون شعورها ؟

إن طلحة والزبير مرشحان للخلافة منذ اثنتى عشرة سنة ، وقد تكرر اختيار الخليفة من غير بنى هاشم حتى أصبح فى رأى بعضهم كالعرف الذى يجرى عليه التقليد . وليس لعلى سند قاطع من القرآن أو السنة يبطل ذلك العرف ويسقط حجة طلحة والزبير . فإذا كانت السيدة عائشة أميل إلى فريق طلحة والزبير بشعورها وسابقة رجائها فليس ذلك كما أسلفنا بغريب ولا بمخالف للمعهود فى طبائع الناس .

على أننا لا نريد بما تقدم أن نسوغ موقف السيدة عائشة

من وقعة الجمل وخصومات الخلافة ، وإنما أردنا تفسير شعورها على الوجه الذى لا غرابة فيه ؛ ولم نرد تسويغه فى نظر العقل ولا فى نظر التاريخ .

فعلى قد أخطأه التوفيق فى نصيحته .

وعائشة قد أخطأها التوفيق فى مكافحته من أجل هذه النصيحة ، وإن كانت لا تلام على أنها كانت تتمنى الخلافة لسواه .

ولكننا إذا ذكرنا هذا كان علينا أن نذكر معه أن السيدة عائشة ندمت على موقفها من يوم الجمل أشد ندامة ، فكانت تقول بقية حياتها : ليتنى مت قبل يوم الجمل ، وقالت مرة : ليت كان لى من رسول الله صلى الله عليه وسلم بنون عشرة وثكلتهم ولم يكن يوم الجمل . وكانت كلما خاض الناس فى حديث ذلك اليوم تبكى حتى تبل خمارها .

وعلينا أن نذكر أنها صانت خصومتها عن كل كلمة نابية فى حق على رضى الله عنه ، فلم تتهمه بدم عثمان ولم تتجاوز بالتهمة بعض من بايعوه ، وقالت عنه غير مرة إنه الصوام القوام ، وإنه أحب الناس إلى رسول الله .

وعلينا أن نذكر أن المغريات بالاندفاع فى هذه الغاشية كثيرة : حدة فى الطبع ، ومفاجأة تبتدر الحدة ، وبيئة مطبقة

بالعداء لعلى ، وسعى حثيث من أقرب الناس إليها وأقربهم إلى إقناعها .

وإنها مع هذا أقدمت على مورد مبهم لا يتضح الشر فيه ؛ وترددت هنالك بين إقدام وإحجام ، واعتقدت أن الأمر لا يفضى إلى قتال . وأصغت إلى دعوة الإصلاح ودعت إليه .

وهو حادث لا بد له من عبرة .

وإن عبرته لأحق عبر التاريخ الإسلامى بالتسجيل .

حقوق المرأة

فى حياة السيدة عائشة ميزان صادق لحقوق المرأة فى عصرها ، وقد يقاس عليه الميزان الصادق لحقوق المرأة فى جميع العصور .

فالحياة البيتية وما يتصل بها من حياة التربية والتعليم ومعونة الرجل فى واجباته العامة هى خير ما تتولاه المرأة من الأعمال .

والسياسة — ولا سيما السياسة فى عصور الاضطراب — هى المجال الذى يحسن بها اجتنابه ولا يرجى لها التوفيق فيه . وقد